مجلة كلية التربية

موضوع الحرية في رواية (سيدات القمر) للكاتبة جوخة الحارثي

منغ ويتشن
Meng Weichen
طالبة دكتوراه
جامعة الاقتصاد والتجارة الدولية
بكين– الصين

المستخلص:

تدور رواية (سيدات القمر) الحائزة على جائزة مان بوكر العالمية لعام ٢٠١٩، حول تقلبات المجتمع العماني خلال القرن الماضي، وتحكي الحياة الروتينية لثلاثة أجيال من شعب العوافي في الريف القريب من العاصمة مسقط. تختبر الشخصيات الرئيسية في الرواية كل أنواع الحب والكراهية، والأفراح والأحزان في تقلبات حياتهم، كما تجد طرقًا لتحقيق الحرية الفردية والجماعية في فجوات الوجود. تهدف هذه المقالة إلى التركيز على ثلاثة جوانب: الظروف المعيشية للناس في ظل النظام الأبوي، وإيقاظ الوعي الطبقي للعبيد في التناقضات والصراعات الطبقية، والحفاظ على الذات وتطوير الثقافة الوطنية بعد الاستقلال.

الكلمات المفتاحية: سيدات القمر، عمان، النظام الأبوي، الطبقة، ما بعد الاستعمار، الحرية

Abstract:

The 2019 Man Booker International Prize-winning novel, Celestial Bodies, is set against the backdrop of a century of changes in Omani society. It tells the trivia of three generations in Awafi, a village near the capital Muscat. The main characters in the novel experience all kinds of love, hatred, sorrow and joy in the ups and downs of life, but also find the way to realize the freedom of individual and group in the gap of life. This paper intends to observe the author's expression on the theme of "freedom" from three aspects: people's living conditions under the fetters of patriarchy, the awakening of slave class consciousness in class contradictions and conflicts, and the self-preservation and development of national culture in the post-colonial context, so as to glimpse the gradual and transformation of Arab society from tradition to modernity.

Keywords: Celestial Bodies, Oman, patriarchy, class, post-colony, freedom

المقدمة:

صدرتْ رواية "Celestial Bodies"في عام ٢٠١٩، وهي الترجمة الإنجليزية لرواية "سيدات القمر" لفوزها بجائزة (مان بوكر) العالمية بعد منافسة شرسة، والتي تم ترجمتها إلى ما يقرب من ثلاثين لغة، وتعدّ مؤلّفتها جوخة الحارثي أول كاتبة عربية تفوز بهذه الجائزة؛ لذا، علّقت رئيسة لجنة تحكيم الجائزة (بيتاني هيوز) أنّ "سيدات القمر" رواية "تبدأ في الغرفة الواحد وتنتهي إلى العالم" (عمران عبد الله، ٢٠١٩)[١]، وهي تقصد بهذا ما أكّدت عليه فرجينيا وولف عندما وصفت الحرية بامتلاك غرفة؛ ليكون الإنسان حرًا في تصرفاته فقالت:" غرفة تخصّ المرء وحده"، والحارثي تتبنّى مساحة واسعة من خيال القراء بأسلوبها الدقيق، وتعرض مشاهد التغيرات التاريخية والتقلبات الاجتماعية في سلطنة عُمان على مدى المائة عام الماضية، مما تسبب في تحويل اهتمام العالم الأدبي الدولي إلى أدب الدولة الخليجية الصغيرة التي كانت على حافة المسرح العالمي منذ فترة طويلة.

تأخذ الحارثي قرية العوافي العمانية كمساحة سردية رئيسة، حيث تروي قصص الحياة والتجارب العاطفية لثلاثة أجيال من منظور زوج مايا– الأخت الكبرى للأخوات الثلاث– عبد الله، ومنظور الراوي العليم بضمير الغائب في الوقت نفسه. تربط الحارثي بمهارة بين تجارب حياة الشخصيات المختلفة وهي ماهرة في دمج التاريخ في حياة الشخصيات، بينما تفكّك السرديات الكبرى والقصص المعقّدة لوصف الظروف المعيشية للأشخاص العاديين الذين يفقدون حريتهم لأسباب مختلفة في الحياة الصعبة، ولكنهم يسعون باستمرار إلى الحرية، ولذلك، "تصوّر الرواية جانبًا غير مرئي من المجتمع العماني وتجسد روح مجتمع الشرق الأوسط الذي يمر بمرحلة انتقالية ويواجه تحديات وفرصًا جديدة" (Yadav Manshi, Sunil K. Mishra,2022,46)، ويسلّط المقال

[١] التوثيق في المقالة الحالية يتبع الأسلوب APA

الحالي الضوء على فكرة رئيسة للمؤلّفة عن قضية "الحرية" والصراع الطبقي من خلال الجوانب الثلاثة: الجنس، والطبقة، والدولة.

أولًا: السعي إلى الحرية تحت قيود النظام الأبوي:

"تأسست رواية "سيدات القمر" على نوعين من الخطاب اتّصل أولهما بالراوي وهو عبد الله وتعلق الثاني بالشخصيات وهي عديدة متنوعة تكلفت كلها بالقول الذي منحها هويتها في العالم الروائي"(هاجر الحراثي، ٢٠٢٠، ٣). ومن بينهم، يعدّ عبد الله شخصية رئيسة تربط بين عائلتين من ثلاثة أجيال حسب ترتيب الكاتبة، لذلك يتمكّن من التعبير عن رأيه كالبطل، ونظرًا لأن الكاتبة تستخدم تيار الوعي السردي للذاكرة كأسلوب تعتمد عليه، فإن عبد الله قادر على الحديث عن تاريخ عائلته في أي وقت، وبالتالي يكسر نمط السرد الخطي للروايات التقليدية، فيستذكر عبد الله تجاربه الحياتية بشكل متقطع وهو نصف نائم ونصف مستيقظ في الطائرة المتجهة إلى فرانكفورت، لأن الذكريات كانت بمثابة حوار مع قلبه، ويستطيع أن يتحدث مع نفسه بحرية ويعبر عن مشاعره، وهذه طريقة جيدة للتعبير عن حقيقته الداخلية، فهو خجول وحساس، ومن بين الذكريات التي تدور في رأسه استرجاع مشهد خاص دائمًا وهو أنه كان معلّقا في البئر رأسًا على عقب بسبب سرقة مسدّس والده لإطلاق النار على العصافير بإيعاز من أصدقائه، الأمر الذي يشكّل نوعًا من الذاكرة المؤلمة التي تطارده وتعذبه بصفة دائمة.

ومن عوامل إثراء الرواية عاطفيًا هو مونولوج عبد الله الداخلي الطويل، رغم أنه لا توجد جملة فيه تُقال للقارئ بشكل متعمّد، إلا أن القارئ يشعر بالحزن على الابن المسكين الذي قمعته السلطة الأبوية، ومن صفاته أنه طويل القامة وحسّاس، فهو: "صبيّ متنكّر في خنجر رجل" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ١٣٣). يطيع بكل استكانة أوامر والده سليمان الحاكم الأعلى للأسرة بعد أن فقد والدته منذ ولادته، وكان دائمًا حريصًا على جذب انتباه أبيه واستحسانه لأقواله وأعماله، الوالد يقوم على إدارة أعمال

العائلة الموروثة بطريقة منظّمة ويجمع الثروة الطائلة لعائلته. وبالإضافة إلى ذلك، رضاه عن فطنة ابنه عبد الله التجارية الذي اضطرّ إلى التخلي عن اهتماماته الخاصة ودراسة الأعمال التجارية، وبالرغم من ذلك كان الوالد يسخر منه دائمًا ويوبخه حتى وهو يحقق نتائج جيدة، فكان يُحقر منه ويتعامل معه بلا مبالاة.

كان عبد الله يعيش دائمًا تحت ضغط والده، فلم يستطع الفكاك أو الهروب، وكما يذكر الفيلسوف جون ستيوارت مل في كتابه "عن الحرية" أن "الفردية يجب أن تحافظ على الحقوق الخاصة" (جون ستيورات مل، ٢٠١٧، ٦٦)، أي يجب على الفرد أن يتطور بما يتوافق مع خصائصه الداخلية ويتخلص من أي معوقات وقيود خارجية حتى ينال الحق في الحرية، فشخصية عبد الله يتلاشى دورها ويختفي في ظل قمع السلطة الأبوية الشديدة، حتى أنه يصبح عاجزًا ومرتبكًا بشكل متزايد، وترتب على ذلك عدم جرأته في السؤال عن سرّ وفاة والدته، وكان قليل الكلام والاندماج حتى مع زوجته، فعلى الرغم من افتقاره إلى الحرية في الحياة الواقعية، إلا أنه يكتسب درجة معينة من الحرية والاستقلال من خلال المونولوجات الذاتية العديدة مع النفس.

الأسرة عبارة عن مجتمع طبيعي بحت"(سمية ياوري وآخرون، ٢٠٢٣، ١٤٣)، حيث يكون لكل فرد الأسرة مكانه الخاص. في الرواية، لقد عانت النساء على مدار الأجيال الثلاثة في الرواية من النظام الأبوي، سليمة التي تمثل الجيل الأول من النساء هي والدة مايا، وعاشت مع شقيقها الأصغر في منزل عمّها بعد وفاة والدها وكلما تذكّرت طفولتها المسكينة المليئة بالجوع والوحدة شعرت بـ "خيط رفيع من المرارة يلفّ قلبها" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٧٩)، حتى أنها كانت تحسد تمتع عبيد عمها على الفرح والحرية، وتعذّبها استرجاع الذاكرة للفترة الصعبة مما يشكل آلامًا للذاكرة، وتستسلم سليمة لعمّها عندما تكبر، وتُجبر على الخطوبة من عزان وهو أحد أقربائها، وتظل تقاوم وتحاول الهروب من الزواج لكنها في النهاية خضعت وأيقنت أنه لا مفر فتزوجت وعاشت حياة زوجية رتيبة باردة، إن مثل هذا الزواج محكوم عليه بالفشل سلفًا، وبالفعل

بعد الزواج افتقرت للعاطفة والاحتواء وزاد الأمر عندما خانها زوجها، ولم تجد سليمة بدًا من الرضوخ واختارت العيش بصمت والتحمل، وتحوّل انتباهها عن طريق تنظيم حفلات زفاف بناتها. لم يكن بوسعها سوى استخدام السحر لاستعادة قلب زوجها مرة أخرى، وتحكم المنزل بثقة وهدوء، وتمزج ببراعة الأم بين اللين والحسم، وبناءً على نموها الشخصي، فإنها تعلّم بناتها المعايير الأخلاقية الصارمة وتقرر زواجهن، وبالتالي تتمكن من "اتخاذ القرارات بتصميم حازم وتشكيل مساراتهن المستقبلية."(رابعة العدوية يوسف، ريحانة ميدين، ٢٠٢٢، ٢٠١)

والأخت الكبرى هي مايا وتمثل الجيل الثاني من النساء، وقد تعيّن عليها قبول الخطوبة التي رتّبها لها والداها وفقًا للعادات العمانية التقليدية وهي كالدمية لا رأي لها. وكانت تتسم بالروح المتمرّدة في داخلها، فمثلًا، تصرّ على الولادة في المستشفى المسيحي وتطلق على ابنتها اسم "لندن" تخليدًا لذكرى حبّها الأول، الشاب العماني الذي عاد من الدراسة في لندن. ولم تكن مبالية بزوجها وحياتها، في احتجاج صامت على هذا الزواج غير المرضي، تعلمت الخياطة وعملت بها ليلًا ونهارًا للهرب من الواقع المؤلم، تاركة الشعور بالاختناق يختفي رويدًا رويدًا مع حركات ماكينة الخياطة الصاخبة، وكان "النوم هو جنّتها الوحيدة، وسلاحها الأخير ضدّ قلق وجودها البالغ" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٥١)، ولم تقلق بشأن استقرار الحالة العاطفية لابنتها الكبرى لندن، ولم تكن تبالي بدراسة ابنها الثاني سليم، ويمكنها أن تنسى مرض التوحد الذي يعاني منه ابنها الثالث، ولم تشعر بالأمان والراحة مع زوجها الذي لم يكن يعيرها أي اهتمام والشعور بحريتها سوى في وقت العلاقة فقط.

وأما الجيل الثالث من النساء الذي عرضته الكاتبة فهو يختلف تمامًا، فقد تمكن من تلقّي التعليم منذ الصغر، والانتماء إلى فئة النخبة الفكرية والتمتع بقدر أكبر من الحرية في جميع النواحي، لكن ليس بالضرورة أكثر سعادة، فلندن ابنة مايا، وهي طالبة جامعية في كلية الطب، من أسرة مرموقة وكانت تأسرها كلمات أحمد العذبة ليجذبها

إليه وهو من الطبقة الدنيا، إلى أن تزوجها على الرغم من الفروق الطبقية، وبذلك تخطّت الحواجز والفوارق، وقد كان يسيطر عليها جسديًا وروحيًا، ولأنها كانت تخشى الطلاق، فقد كبتت العنف المنزلي في نفسها وما يحدث معها فلم تجرؤ على الحديث مع الآخرين.

تذكر الكاتبة التناصّ في حالة مشابهة لها وهي صديقتها المقرّبة حنان، فهي معلّمة في المدرسة، وقد تعرضت ذات ليلة للاعتداء من قبل مجموعة من الشباب فقرّرت مع عائلتها التزام الصمت من أجل شرف العائلة، ففي المجتمع الأبوي، تخضع النساء للرجل بالكلية، وليس لديهن صوت خاص بهن، ولا يستطعن التعبير عن مطالبهن العادية، وتلتقي شخصية لندن وحنان في فقدان القدرة على الكلام وسجن أجسادهما وعقولهما من قبل النظام الأبوي.

وأشارت الرواية إلى الإصلاحات العديدة لمكانة وتعزيز المرأة اجتماعيًا في سلطنة عمان في العصر الحديث. كما تذكر الرواية أنه في التحول التدريجي للمجتمع العماني من التقليد إلى الحداثة، يتم التخلص تدريجيًا من الأفكار القديمة وخاصة المرتبطة بالمرأة واستقلالها ونظرة المجتمع لها، ولكن لا يزال أمامها طريق طويل للحصول على "الحرية الجماعية".

وقد عاشت الأمة العربية في خلفيتها الاجتماعية وبداياتها عيشة بدوية وأولت أهمية كبيرة للرجولة لحماية القبائل والماشية، والتنافس على الموارد. والاعتماد على البِنية القوية للرجال لتطور القبيلة ونموها مما يؤدي إلى ظهور ثقافة بدوية ذات بصمة أبوية قوية، ورغم تحسن وضع المرأة العربية بدرجات متفاوتة في مختلف البلدان بدعوة من ذوي البصيرة في عصرنا الحديث، إلا أنه حتى يومنا هذا، لا يبدو أن المفاهيم النسوية المنقولة عن الغرب تتكيف بشكل جيد مع البيئة والثقافة المحلية، فيعتقد الكثير من فئة النخبة وعامة الناس أن "النسوية" هي "نتاج النظام الرأسمالي الغربي المنحط" وأنها تسببت في اغتراب المرأة العربية وعدم توافقها مع الثقافة المحليّة وواجبات ربات البيوت"

(نيو تسي مو، ٢٠١٩، ٩٤)، وأيضًا "في جميع المجالات التي تهيمن عليها السلطة الأبوية، ولا يوجد سوى معيار واحد لتجسيد المرأة وتهميشها وتعريفها باعتبارها الآخر، وهذا يمثّل الاختلافات بين المعايير والقيم السلوكية للنساء والرجال"(لويس تايسون، ٢٠١٤، ١٠١).

وتعلَم مايا عبر التحذيرات المتكررة من الجيل الأكبر سنّا بأنها لا تستطيع أن تكون في نفس الغرفة مع الرجال قبل زواجها، وعليها دائمًا أن تحافظ على عفتها بعد الزواج، ويجب أن تعرف كيف ترضي زوجها، وتتجنّب تناول الطعام مع الأقارب أو الأصدقاء في غضون شهر واحد بعد الولادة، حيث يعتبر الجسم غير نظيف في ذلك الوقت. وتقع دول الخليج التي عمان فيها في شبه الجزيرة العربية، وهي أيضًا مهد الإسلام، كما تعد منطقة الخليج من أهم المناطق لإنتاج النفط في العالم، وفي مثل هذه البيئة الجغرافية الخاصة، إذ تريد أن تكون مستقلة وألا تتورّط في صراع أو تصبح تابعة لدول أخرى، يجب عليها الحفاظ على تقاليدها وثقافتها المتأصلة والتقيّد بالمبادئ الدينية، وتجنّب غزو الاتجاهات الفكرية الغربية.

إن "النظام الأبوي" هو نظام اجتماعي يتميّز بسيادة الذكر الرئيس وتبعية النساء والذريّة له؛ لكن هذا النظام لا يقتصر على هيمنة الرجال فقط، بل تشارك النساء في هذه الهيمنة كذلك. (تونغ شين، ٢٠١١، ٥)، وهو ما يعني: أنه يمكن لكل من الرجال والنساء الاعتماد على النظام الأبوي لقمع الآخرين، ويمكنهم أيضًا أن يصبحوا ضحايا. ولذلك نرى أن عبد الله كان يخضع لوالده خضوعًا تامًا، حيث تحاول سليمة منع حفيدتها لندن بالقوة من الزواج من زميلها في الدراسة من الطبقة الدنيا. وفقد عبد الله حريته في التفكير كما فقد نفسه أيضا تحت سيطرة والده، وهذا على النقيض تمامًا من سليمة التي كانت تتولى مسؤولية كل شؤون الأسرة بعد الزواج.

تهدف الكاتبة إلى عرض التجارب الشخصية لحياة عبد الله وسليمة لتعريف القراء على النماذج الأكثر ثراء لـ "النظام الأبوي". في البلدان التقليدية مثل عمان؛ حيث

يحافظ "النظام الأبوي" على قوته داخل كل أسرة ويسيطر على المجتمع بأكمله، ولكن على حساب الحرية الفردية والجماعية، فالمرأة الوحيدة "خارج النظام" في الرواية هي عشيقة عزان البدوية، نجيّة، الملقبة بـ "القمر". تحمّلت العبء المالي بشجاعة بعد أن مرض شقيقها وكانت جريئة ومستقلّة في حريتها فنالت الثناء الضمني من الكاتبة.

ووفقًا لرأي فوكو، فإن العامل الرئيسي الذي يتحكم في السلوك الخطابي هو القوة، فيواصل الرجال استخدام قوتهم الخطابية للسيطرة على النساء من أجل الحفاظ على مواقعهم المهيمنة في التعارض الثنائي بين الخطاب المركزي والخطاب الهامشي. ومع ذلك، فإن داخل الخطاب سيكون في حالة غير مستقرّة بسبب تدخّل القوة الأخرى. "والخطاب في حد ذاته هو نتاج وعنصر للقوة. فمن ناحية، الخطابات الجديدة تخلق ممارسة القوة باستمرار؛ ومن ناحية أخرى، يمكن لهذه الخطابات أن تؤدي إلى نوع معين من القوة وتقويته، أو تضعف هذا النوع من القوة." (هوانغ هوا، ٢٠٠٥، ٤٢).

وهناك أيضًا شخصيات نسائية في الرواية تحاول تحدّي الخطاب الأبوي: فتتحمّل أخت مايا الثالثة خولة خيانة زوجها لفترة طويلة من أجل توفير حياة مستقرة لأطفالها. وعندما يكبر الأطفال، تختار الطلاق بشكل حاسم، وهذا هو بالضبط ما أكد عليه مل في رائعته النسوية الليبرالية "الوضع الخاضع للمرأة". وينبغي للمجتمع أن يفيد الجميع بغض النظر عن الجنس، لذلك، في رأيه أن إعطاء المرأة الحق في الطلاق أمر ضروري من أجل إنقاذ المرأة من ظلم الرجال. وفيما يتعلق بقرار خولة بالطلاق، "ظنّ الجميع أنّها جُنّت، أو أنّها تخفي أسرارًا رهيبة دفعتها لهذا القرار المجنون" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٢١٨). لم تشرح خولة حتى ولو كلمة واحدة مواجهة الاتهامات من جيرانها، كما أنها أصمّت آذانها عن توسلات زوجها وتعبيراته عن الحبّ بعد الطلاق، وتحاول خولة إدارة صالون في العاصمة والحصول على حريتها بالاستقلال المالي، وعلى الرغم من الشائعات العديدة المتداولة، لا تزال خولة تستخدم شجاعتها لتقود الطريق الذي لم تعد فيه القيمة والحقوق الفردية مقيدة بالجنس.

ثانيًا: إيقاظ الوعي الطبقي في التناقضات والصراعات الطبقية:

تأخذ الكاتبة جوخة الحارثي قرّاءها إلى عمان في أواخر القرن التاسع عشر على الرغم من أن الحبكة الرئيسة لرواية "سيدات القمر" تدور أحداثها منذ الستينيات، إن جدّ الجارية ظريفة سنجور نجا من الموت بأعجوبة على متن سفينة العبيد، فقد انتشر الاتجار بالرقيق بين عمان وشرق إفريقيا في ذلك الوقت. جمع والد سليمان هلال ثروته من خلال تجارة الأسلحة والاتجار بالرقيق، فقد "ورث سليمان عن أبيه كلّ الشيء: حنكته التجارية، وذكاءه، وقامته المديدة" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٢٠٤)، لذلك، احتلّ مكانة رفيعة كالحاكم بأمره في الأسرة فاستغل العبيد الضعفاء الذين جاؤوا من زنجبار وبلوشستان اللّذان ورد ذكرهما مرات عديدة في الرواية ويرتبطان ارتباطًا وثيقًا بتاريخ عمان.

وفي وقت مبكّر من القرن الثامن إلى القرن العاشر، أصبحت زنجبار مركزًا كبيرًا للتجارة في المحيط الهندي في شرق إفريقيا، وفي عام ١٦٥٢، ساعدت عمان زنجبار على صدّ المستعمرين البرتغاليين، وتوسعت التجارة بالرقيق إلى أن تأسست سلطنة زنجبار عام ١٨٥٦، فسيطرت على الاتجار بالرقيق واحتكرتها أثناء بناء دولتهم الحديثة والمركزية (Thomas Vernet, 2013,6)، وأصبحت زنجبار تدريجيًا مركزًا للاتجار بالرقيق في شرق إفريقيا في عهد ماجد بن سعيد (١٨٥٦–١٨٧٠)، وقد أدى وصول العرب إلى تسريع تنظيم شبكة الاتجار بالرقيق في شرق إفريقيا، وتم نقل عدد لا يحصى من العبيد إلى زنجبار. "وفي عام ١٨٣٤، بلغ عدد العبيد المنقولين إلى زنجبار من البر الرئيسي كل عام ٦٥٠٠، وارتفع هذا العدد إلى ١٣٠٠٠–15000 بحلول عام ١٨٤٠" (Ronald Segal, 2001, 146)، حيث كان العبيد هم القوى العاملة الرئيسة في المجتمع في ذلك الوقت، بالإضافة إلى ذلك، قامت الحكومة العمانية في كثير من الأحيان بتجنيد العبيد من بلوشستان وإفريقيا لقمع القبائل التي كانت تعارض الحكومة.

كان سنجور أحد العبيد الذين تم الاتجار بهم، وكان يحمل دائمًا همّ طبقة العبيد المستغلة.

إن الوعي الطبقي يعكس تمتّع الطبقات بمعرفة شاملة للبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها ولديها القدرة على إدارة هذا المجتمع والسيطرة عليه بشكل فعال، إذا لم تتمكن طبقة معينة من فهم التاريخ الاجتماعي بأكمله ككل وتشكيل وعيها، فإنها لا تستطيع أن تلعب دورًا في تعزيز التقدم الاجتماعي لأن هذه الطبقة لا تزال في مرحلة النمو، كما صنّف أنتوني غيدنز الوعي الطبقي بقوله: "المستوى الأدنى هو عندما تشعر الفئات الاجتماعية بهويتها الطبقية فقط، والمستوى المتوسط هو عندما يكون لديهم "مفهوم الصراع الطبقي"، والمستوى الأعلى هو "الوعي الطبقي الثوري" (لي تشيانغ، ٢٠١١، ١٧٨).

ومعظم العبيد في الرواية ليس لديهم سوى وعي طبقي من المستوى الأدنى، أي أنهم يشعرون فقط بالاختلافات بين الطبقات، لكنهم لا يجرؤون على النهوض والمطالبة بحقوقهم مع أنّهم غير راضين عن سيطرة هذا الوعي._أعطيت ابنة سنجور والجارية عنكبوتة نصيبًا من قبل سيدها الشيخ سعيد (عمّ سليمة)، تم سجنها في قبو مظلم بسبب عصيانها وتعرضت للتعذيب، وفي ٢٥ سبتمبر ١٩٢٦، تم التوقيع على اتفاقية لمنع تجارة الرقيق في جنيف، في نفس الوقت، قطعت عنكبوتة من سرّة المولود بسكين صدئة وأنجبت ابنتها ظريفة التي كانت جارية أيضًا، ولكن وقعت ظريفة التي بيعت لسليمان في حبّ سيدها وكرّست حياتها لعائلة سليمان دون أي ندم. إلا أن رجل الأعمال الثري سليمان لم يمنحها مكانة رئيسة لعلاقتهما في البيت، بل سمح لها أن تعيش حياة حزينة كجارية من تقديم الشاي والماء في النهار وإرضاء سيدها في الليل، وبعد ذلك اتّبعت الجارية ظريفة طلب السيد من زواج العبد حبيب، وبعد وفاة سليمان، ذهبت ظريفة إلى الكويت لتلحق بابنها، لكنها سرعان ما عادت إلى الأرض التي دفن فيها سيدها، لإحساسها العميق بالاعتماد عليه، وقد استنفدت ذاتيتها منذ فترة طويلة في

حياة العبيد اليومية، ويبدو أنها " فقدت كل شيء تحت القيود، حتى الرغبة في الهروب من العبودية، كشفت الكاتبة الضرر الدائم الذي ألحقته العبودية بنفوس المضطهدين بأسلوب ساخر.

بدأت الحكومة العمانية خطوات حثيثة لإلغاء العبودية والتوقيع على اتفاقية للحد من الاتجار بالرقيق، لكن سليمان زادت سطوته وجمع ثروة كبيرة من المجتمع القديم ورفض الانتقال إلى مجتمع جديد نظيف تسود فيه المساواة، حتى اللحظة الأخيرة من حياته كان لا يزال يعتقد اعتقادًا راسخًا أن له الحق في الامتلاك والسيطرة على العبيد من شرق إفريقيا إلى بلوشستان. لقد انطبع مفهوم العلاقة بين السيد والعبد من الوعي الطبقي في ذهنه بشكل عميق. يشير لوكاش إلى أنه "إذا كانت هناك طبقة اجتماعية لديها القدرة ويسمح لها بالحكم، فإن هذه الطبقة سوف تدير وترتب عمليات المجتمع وفقًا لمصالحها ووعيها الخاص" (جورج لوكاش، ٢٠٠٩، ١١١). سواء كان والد سليمان هلال الذي كان يمارس الاتجار بالرقيق، أو سليمان الذي لم ينس خدمة العبيد حتى وهو في حال فقدانه للوعي ودخوله في غيبوبة، فقد انتميا إلى طبقة ملّاك العبيد لأنها تعتمد في كثير من الأحيان على العنف والوحشية من أجل تحقيق مصالحها وامتيازاتها الخاصة.

ولد عبد الله في طبقة مالك العبيد، ونشأ وهو يرضع من ظريفة، بينما كان ابن ظريفة سنجور عبدًا منذ ولادته. إن استمرار هويّة العبيد من جيل إلى جيل يسجن الحرية الشخصية للعبيد، ويقيّد أفكارهم، ويجعلهم خاضعين، بل ويشوه شخصيتهم. أما الشخصية الأخرى شنّة، فهي ابنة الجارية العجوز مسعودة كانت حريصة على تغيير مصيرها، فحاولت أن تصبح سيّدة من خلال إغراء ابن سيّدها عبد الله وأصبحت غير مبالية بعد فشل هذه الفكرة، وكرهت كل شيء وكل شخص في العوافي دون تمييز، ونفست عن استيائها على والدتها، لتصبح ضحية من نوع مختلف للعبودية العمانية.

ويجب أن نؤكد أنه "من الضروري استخدام الخبرة وتفسيرها بطريقة خاصة عندما تنضج القدرة فهذا هو امتياز الإنسان وحالته الصحيحة" (جون ستيوارت مل، ٢٠١٧، ٦٨)، ومع أحداث الرواية نلاحظ "نضج القدرة" مع اقتراب الوعي الطبقي مجموعة العبيد من المستوى المتوسط، وفي هذه المرحلة، يعترف الوعي الطبقي بصراعات المصالح بين الطبقات المختلفة. بدأ العبيد يدركون أن مصالح طبقة مالك العبيد تنبع من حرمانهم من الحرية والضغط على قوتهم العاملة، واستيقظت عقولهم بشكل متزايد في سياق الحركة لقمع تجارة الرقيق، فزوج ظريفة حبيب، هو الأكثر ثورية بين العبيد بطبيعته، فهو يكره سيده سليمان كثيرًا لدرجة أنه غالبًا ما يختنق ويدندن بالأغاني في مسقط رأسه في بلوش، على أمل التخلص من هويته كعبد في أقرب وقت ممكن لدرجة الصراخ في أحلامه: "نحن أحرار أحرار!"، وفي النهاية، هو غير قادر على تحمّل الوضع الحالي، فتخلى عن زوجته وأطفاله وهرب بهدوء إلى الكويت.

وبعد هروبه، استيقظ سنجور وأدرك أن كل شخص هو سيّد نفسه، فصرخ في وجه أمه:" التاجر سليمان ربّاني وعلّمني وزوّجني لمصلحته هو، لأجل خدمته وتخدمه امرأتي وأولادي، لكن لا يا ظريفة، التاجر سليمان ما له دخل بي، نحن أحرار بموجب القانون، أحرار يا ظريفة، افتحي عيونك، الدنيا تغيّرت وأنت تردّدين سيّدي، كلّ الناس تعلّموا وتوظّفوا وأنت مثل أنت، عبدة التاجر سليمان فقط، هذا الشايب الخرفان، افتحي عيونك يا ظريفة، نحن أحرار، كلّ واحد سيّد نفسه، (ما حدّ سيّد حدّ)، أنا حرّ، أسافر كما أريد وأسمّي أولادي كما أريد. (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٩٣-٩٤)

وفي ملمح من ملامح الرواية نرى استيقاظ المرأة العجوز مسعودة على مواجهة الموت، فقد سجنتها ابنتها وادّعت أنها مجنونة لفترة طويلة ونسيت من هي. أخيرًا، أطلقت صوتا هستيريا للمقاومة في أحد الأيام: " أنا هنا! أنا هنا!"، إن الصرخة ترمز لشوقها وحرصها على نيل الحرية. وكانت تعدّ هذه الصرخات إدانة للظلم والقمع الذي تعرضت له كل طبقة العبيد، لقد كشفت الكاتبة اللثام عن الاحتكاك الطبقي والصراعات

الضمنية بين طبقة مُلّاك العبيد وطبقة العبيد خلال فترة التحول الاجتماعي في سلطنة عُمان بأسلوب أدبي دقيق، ووصفت التجربة المأساوية للعبيد من خلال الأضرار البالغة التي تعرضوا لها.

ثالثًا: الطريق إلى الاستقلال والحرية في سياق ما بعد الاستعمار:

تعمل الكاتبة إسقاطًا على إحدى الخلفيات التاريخية المهمة للرواية هي حرب الجبل الأخضر في تاريخ عمان الحديث؛ فقد عمل النفط على إسراع النهضة الحديثة للسلطنة مثل دول الخليج الأخرى، ومثّل مصدرًا للتحديات والمعضلات أيضًا، ففي عام ١٩٢٠، وقّع حكّام عمان معاهدة (السيب) مع المستعمرين البريطانيين الغزاة، الأمر الذي قسّم البلاد إلى سلطنة مسقط وإمامة عمان، فتم اكتشاف النفط في أراضي إمامة عمان، مما جعل المستعمر البريطاني يستغل هذه الفرصة وأوعز لسلطان مسقط لإعلان الحرب على إمامة عمان، ودعمت مصر والمملكة العربية السعودية ودول أخرى إمامة عمان في مقاومة الاستعمار، فأحدث هذا نزاعًا مسلحًا بين الجانبين في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٧ (هان تشي بين وآخرون، ٢٠١٧، ٨٨).

هرب شقيق سليمة الأصغر معاذ من منزل عمه إلى الخطوط الأمامية وانضم إلى جيش إمامة عمان. وكانت سخرية عمه قاسية ولكنها حقيقية: "هل يظنّ الأحمق أنّ احتماءه في الجبل الأخضر مع الإمام وجماعته سينقذهم من طائرات الإنجليز؟ الإنجليز معهم الطائرات والسلاح وهم أيش معهم؟"(جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ١٣٠)، وأثناء السير داس معاذ على لغم أرضي في إحدى الليالي وفقد حياته، فانقلبت حياة الأسرة بعد انتشار خبر وفاته، فدخلت والدته في غيبوبة لمدة عشر سنوات من الصدمة ثم توفيت وقلبها منفطر عليه.

وعيسى الذي نشأ في زمن الحرب عانى أيضًا من ويلاتها، فقد ولد في عائلة شريفة، حيث رافق والده الشيخ عليّ الذي كان عضوًا في الوفد سفير إمامة عمان للتوقيع على

معاهدة السيب، وشهد استقلالها، وكان الجد الأكبر لعلي الشيخ منصور بن ناصر فارسًا يشارك في المقاومة ضد الحركة الوهابية، تأثر عيسى بروح أجداده البطولية في الدفاع عن وطنهم، فانضم إلى الجيش وقاتل جنبًا إلى جنب مع القائد الإمام لمقاومة المستعمرين البريطانيين في حرب الجبل الأخضر، وبعد خسارة الحرب اضطر عيسى للذهاب إلى المنفى في مصر. في أرض أجنبية، "ولم ينس أنّه مهاجر حمل روحه وتاريخه، وعمل بكلّ دأب على أن يحمل ابنه البكر هذا التاريخ" (جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ١٩١).

لذلك، بدأ يجمع ماله الخاص لنشر ديوان من القصائد العمانية في القاهرة، وقرّر دفن رفاته بعد وفاته في وطنه عمان. وبالنسبة لخالد ابنه فهو يعرف تاريخ العائلة ويستطيع استظهار القصائد الوطنية بطلاقة. وصفت الكاتبة الأسرة التي تزوجت منها أخت مايا الثانية أسماء، حاجة حضارة سلطنة عمان خاصة والأمة العربية عامة إلى رجال وطنيين وقوميين مثل عيسى للحفاظ عليها وعلى تراثها.

وفي فترة ما بعد الاستعمار، ظهرت أهمية اللغة، فقد استقّلت سلطنة عمان في عام 1970 وانسحبت بريطانيا، لكنها تركت موروثًا ثقافيًا لفترة طويلة، يقول المعلّم بيل لعبد الله: "لماذا لم تتعلّم الإنجليزيّة وأنت صغير؟ الآن أدركت أهمّيّتها؟ إنّها أهمّ لغة في العالم."(جوخة الحارثي، ٢٠١٠، ٢٨) فسخر من عبد الله بسبب أنه لا يمكنه استخدام اللغة الإنجليزية وهو تاجر، بل قال بصراحة إن اللغة الإنجليزية هي اللغة المستخدمة الوحيدة في المطاعم في مسقط فلم تستطع التعامل وطلب الطعام.

وهذه الظاهرة ليست بالأمر الجديد في العديد من الدول العربية، وفي جميع أنحاء العالم أيضًا، حيث تنتشر الثقافة الغربية وعلى رأسها الثقافة الإنجليزية، في التعبير عن قيمها الخاصة مع موجة العولمة، مما ينتج عنه التفكير بعمق في المفاهيم التقليدية وإعادة تعريفها مثل الثقافة الوطنية المتجانسة والميراث التاريخي المتماسك.

وقد أشارت الكاتبة إلى إقبال الشباب على الثقافات الأجنبية واقتحام المجهول، وكثيرًا ما كان سالم ابن عبد الله يشعر بالملل من الوجبات المطبوخة في المنزل، لذلك كان يخرج دائمًا لتناول الوجبات السريعة الأجنبية مثل: ماكدونالدز وغيرها من الوجبات في المطاعم الممتدة على طول الشوارع على مرأى البصر، وحتى في المدينة الإسلامية القديمة حيث الأجواء الثقافية المختلفة عن الأماكن الأخرى. نشأت لندن وصديقتها المقرّبة هناء في العاصمة مسقط، وتلقتا تعليمًا حديثًا وتأثرتا بشدة بالتعددية الثقافية، ولذلك فإنهما تمتعتا برؤية واسعة وتفكير حرّ، وهما ممثلتان للشابات المتميزات في القرن الجديد، ويختلط التواصل الشفهي اليومي بينهما في بعض الأحيان بعبارات إنجليزية مثل "سو وات" (وماذا في ذلك)، "ديليت لت ات جو" (احذف، اتركه).

في هذا الجو العام، ينبغي على العمانيين الذين عانوا من الاستعمار البريطاني أن يولوا المزيد من الاهتمام لحماية تراثهم وثقافتهم، لقد تولّت الجارية ظريفة هذه المهمة إلى حد كبير باعتبارها ممثلة للطبقة الدنيا، فهي معتادة على المحادثة بلهجة عمانية، وهو ما يتوافق مع صورتها الشخصية غير المتعلمة، فضلًا عن أنها دائمًا تستشهد بالأمثال الشعبية أثناء الدردشة، مثل: " الشمس ما تغطّيها كفّ"، و" الحمار لما يشبع يرفس"، وما إلى ذلك، وهذه الأمثال والحِكم العربية الجماعية للشعب العربي منذ القدم، تُعرف بأنها كنوز الثقافة العربية الإسلامية بسبب الجمع بين العادات الاجتماعية والتاريخ والثقافة والعقيدة والأخلاق وغيرها. " إن توظيف التراث الشعبي—والمثل جزء منه—ينبئ بالوعي القائم في ذهن الروائية أثناء بنائها لشخصيات الرواية التي تنتمي إلى الطبقات الشعبية الهشة نفسيا (العبيد المحرّرين)،"(طبيش حنينة، ٢٠٢١، ١٩٧) لذلك، تقوم الحارثي بهذا الترتيب.

كما اقتبست الكاتبة بعض الآيات من القرآن والاستشهاد بالحديث النبوي ودواوين الشعر على لسان عزان وعيسى وغيرهما من المثقفين لإظهار سحر الثقافة العربية القديمة، فمثلا عندما يعبّر عزان عن حبه للحسناء البدوية نجيّة، فإنه يقتبس من

الشعراء القدماء مثل: ابن الرومي والمتنبي، فالحضور الثقافي العربي دائم ومستمر أمام الجميع، فهو مقاوم بقوة للهيمنة الثقافية البريطانية. لأن "أي قمع ثقافي وفرض ثقافة أمر غير مرغوب فيه وغير عملي، فكل ثقافة لها عملية تطور خاصة بها، ولا يمكن استخدام أي ثقافة كمقياس للحكم على ثقافة أخرى" (تشو لي يوان، ٢٠٠٥، ٤٢٩)،

لقد سافرت الكاتبة إلى بريطانيا لإكمال دراستها عندما كانت صغيرة، ولم يكن بوسعها خلال هذه الفترة إلا الاعتماد على الكتابة للتخفيف من الشعور بالوحدة في أرض أجنبية، والتعبير عن ذكرياتها في الصحراء وذكْر مآثر أجدادها، أشارت إلى هذا في الرواية بأن الجميع يشعرون بالوحدة، إلا أنه يمكن للناس أن يفهموا ويتفاعلوا مع بعضهم البعض على المستوى الروحي، ويمكن أن يمتد هذا الصدى العميق إلى مسافات شاسعة، مما يسمح للناس بالتواصل من خلال المشاعر والخبرات المشتركة، حتى في أماكن مختلفة، وترى الكتابة أن الانهماك في الكتابة أفضل طريقة للعثور على جذور الثقافة الخاصة بكل بلد، وفضلًا عن البناء النفسي فإنه ينبغي فحص ودراسة الثقافة الوطنية واكتشاف الجماليات فيها واستعمالها في الحوار بين الأفراد والبلدان.

فتح المستعمرون البريطانيون الباب واسعًا أمام العالم الخارجي لرؤية تاريخ سلطنة، لكنهم في الوقت نفسه جلبوا تحديات غير مسبوقة للهوية العمانية؛ إذ كيف للشعب المحتل أن يستمر في النضال من أجل تحقيق الاستقلال والحرية مع مواجهة أشكال جديدة من الأيديولوجية الإمبريالية في عصر العولمة هذا؟ وكيف يمكن للشعوب القيام بمقاومة فعالة ومناسبة من أجل تجنّب تهميش الخصائص الثقافية الفريدة للبلاد أو استيعابها تحت تأثير الثقافة الغربية؟ لقد فتح هذا الباب التفكير بكل جدية من قِبل الكُتّاب وخاصة بعد فترة استعمار المغرب العربي في شمال إفريقيا مثل: الطاهر بن جلون، وآسيا جبار، ...إلخ، وأعمالهم المعروفة، ومن هنا أخذت الكاتبة الثقافة المحلية كأساس للتأكيد على القضية المهمة المتمثلة في كيفية الحفاظ على الهوية الثقافية، والبحث عن الحرية، وسدّ فجوات الصراعات الطبقية في مواجهة التغييرات الجديدة.

الخاتمة:

تتخذ رواية "سيدات القمر" قصة الحب والتجارب الحياتية للأخوات الثلاث في الأسرة محورا سرديا، حيث تعرض التغيرات التاريخية الطويلة في المجتمع العماني منذ نهاية الحقبة الاستعمارية حتى الوقت الحاضر. ولا يصور العمل جوانب متعددة من المجتمع العماني فحسب، بدءًا من أفقر عائلات العبيد في مسقط إلى الطبقة الغنية الصاعدة، ولكنه يعرض أيضًا التراث الثقافي العماني والتغيرات الاجتماعية من خلال تفاصيل غنية. و"تستلهم جوخة الحارثى أحداث رواياتها من البيئة العمانية الغنية بالموروث الشعبي، وتحيك تفاصيلها عبر ربط الجغرافيا والمكان بأبطال وعوالمهم الداخلية"(تنسيم. أي. كي، ٢٠٢٠، ٢٦)، وتدمج هذه القصص التاريخية بمهارة في الحياة اليومية للشخصيات، وتعيد إنتاج المشاهد الاجتماعية لتلك الفترة التاريخية بشكل واضح.

ومن خلال تحليل الكاتب الأدبي والاجتماعي لرواية "سيدات القمر"، يمكننا الحصول على نظرة شاملة للعلاقة بين الفرد والمجتمع، والتقاليد والحداثة، فضلًا عن أهمية البحث عن الذات والحرية في هذه العلاقات.

المصادر والمراجع

أولًا: العربية:

تنسيم أي. كي (2020): رواية سيدات القمر: منظور اجتماعي، مجلة الساج، المجلد (02)، الهند.

جوخة الحارثي (2010): سيدات القمر، دار الآداب، بيروت، لبنان.

رابعة العدوية يوسف، ريحانة ميدين (2002): تشكيل الحياة وتشكيل المصائر: الأمومة والأمة في أجساد الموتى بقلم جوخة الحارثي وعصر ذهبي بقلم تهمينة أنام، مجلة دراسات اللغة، المجلد (22)، العدد(3)، تكريت، العراق.

سمية ياوري، حسن مجيدي، حسين شمس آبادي، حسين قدرتي، مهدي خرمي (2023): تمحورات رأس المال الاجتماعي (المعيار) في رواية سيدات القمر، دراسة ونقد، العدد (09)، إيران.

طبيش حنينة (2021): الرواية والتراث الشعبي قراءة في رواية سيدات القمر لجوخة الحارثي، مجلة إشكالات في اللغة العربية، المجلد (10)، العدد (4)، الجزائر.

هاجر الحراثي (2020): في تعدد الأصوات وتعربة الأنساق: الحياة اليومية في رواية "سيدات القمر" لجوخة الحارثي نموذجا، 5th Teaching & Learning Conference، جامعة صحار، عمان.

ثانيا: الصينية:

تشو لي يوان (2005): النظريات الأدبية الغربية المعاصرة، دار النشر لجامعة شرق الصين العادية، شنغهاي، الصين.

تونغ شين (2011): مقدمة لدراسات الجنس، دار النشر لجامعة بكين، بكين، الصين.

جورج لوكاش (2009): التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة دو تشانغ تشى، المطبعة التجارية، بكين، الصين.

جون ستيوارت مل (2017): عن الحرية، ترجمة شيوى باو كوى، المطبعة التجارية، بكين، الصين.

لويس تايسون (2014): دليل عملي للنظرية النقدية المعاصرة. ترجمة تشاو قوه شين وآخرين، مطبعة تعليم وأبحاث اللغات الأجنبية، بكين، الصين.

لي تشيانغ (2011): عشر محاضرات عن الطبقية الاجتماعية، الصحافة الأكاديمية للعلوم الاجتماعية، بكين، الصين.

نيو تسي مو (2019): تعريب المصطلح الغربي "النسوية" في الدول العربية، مجلة القراءة، المجلد (8)، شنغهاي، الصين.

هان تشى بين، تونغ في، تشن شياو تشيان (2017): سجلات دول العالم: سلطنة عمان، الصحافة الأكاديمية للعلوم الاجتماعية، بكين، الصين.

هوانغ هوا (2005): السلطة والجسد والذات: فوكو والنقد الأدبي النسوي، دار النشر لجامعة بكين، بكين، الصين.

ثالثا: الإنجليزية:

Thomas Vernet (2013): East Africa: slave migrations, in the Encyclopedia of Global Human Migration, Blackwell Publishing Ltd, Columbia.

Ronald Segal (2001): Islam's Black Slaves: The Other Black Diaspora, Farrar, Straus and Giroux, New York.

Yadav Manshi, Sunil K. Mishra (2020): Derermining the Culural Dynamic Shift in Jokha Alharthi's Celestial Bodies, International Journal of Linguistics, Literature and Translation, London.

رابعا: الإنترنت:

عمران عبد الله (٢٠١٩): مقال بعنوان: فازت بالمان بوكر"سيدات القمر" لجوخة الحارثي تحلّق بالرواية العربية عالميًا.

متاح في: https://www.aljazeera.net/culture/2019/5/22/